العدد ٢٠٠١/١٣

الأحد ١ نيسان

الأحد الخامس من الصوم

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر الثامن

الرسالة

(عبرانيين ٢: ١١–١٨)

يا إخوةُ إنَّ المقدِّسَ والمقدَّسينَ كُلَّهم من واحدٍ. فلهذا السبب لا يَستحيي أن يدعوَهم إخوةً قائلاً* سأُخبِرُ باسمكَ إخوتي وأُسبِّحُكَ في الكنيسةِ* وأيضًا سأكونُ متوكلاً عليه. وأيضًا هاءَنذا والأولادُ الذينَ أعطانيهم الله* إذًا قد اشتَرَكَ الأولادُ في اللحمِ والدمِ اشترَكَ هو كذلكَ فيهما لكي يُبطِلَ بموتِهِ من كانَ لهُ سلطانُ الموتِ أي إبليس* ويُعتِقَ كُلَّ الذينَ كانوا مُدَّةَ حياتهم كلَّها خاضعينَ للعبوديةِ مخافةً من الموت* فإنهُ لم يتَّخِذِ الملائكةَ قطّ بل إنما اتخذ نسلَ إبرهيم* فمِنْ ثَمِّ كان ينبغي أن يكون شبيهًا بإخوته في كل شيءٍ ليكون رئيسَ كهنةٍ رحيمًا أمينًا فيما لله حتى يُكفِّرَ خطايا الشعب* لأنهُ إذ كان تألم مُجرَّبًا فهو قادرٌ على أن يُغيثَ المصابينَ بالتجارب.

دستور الإيمان

«الذي لا فناء لملكه»

«هذا يكون عظيمًا وابن العلي يُدعى ويُعطيه الرب الإله كرسيّ داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية» (لو١: ٣٢–٣٣).

لقد كان الهدف الأساسي لعمل الرب يسوع الخلاصي أن يجلب لنا ملكوت الله. فتح لنا أبواب الملكوت عندما قَبِلَ أن يصير إنسانًا ويتألم عنا ويقوم من بين الأموات، وأعطانا أن نشترك منذ الآن، وعلى الأرض، في هذا الملكوت بواسطة الأسرار والنِعَمْ الإلهية التي منحنا إياها بموته وقيامته. لذلك قال لنا «ها ملكوت الله داخلكم» (لو ١٧:٢١).

من يقرأ الأناجيل يلاحظ ان الرب يسوع بدأ بشارته بالقول «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (متى ٤:١٧)، وهي الكلمات نفسها التي أطلقها القديس يوحنا المعمدان في بدء بشارته، مهيئًا الطريق أمام الرب يسوع (متى ٣:٢). وكأننا به يقول ان الملكوت هو الرب يسوع، أو ان الملكوت يحصل بيسوع. فمن يثبت مع يسوع ويعمل بوصاياه ينال الملكوت: «أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي، وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتًا لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي» (لو٢٢:٢٨–٣٠)، و«أما من عمل وعلم فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السموات» (متى٥:١٩).

لقد كان الملكوت محور بشارة يسوع، وقد تحدَّث يسوع عنه في مختلف عظاته خاصة العظة على الجبل، كما أورد أمثلة عديدة عنه. «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات... طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات» (متى٥:٣و١٠)، «لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم» (متى٦:٣٣)، «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات» (متى٧:٢١).

شبّه الرب يسوع الملكوت بحبة الخردل والخميرة والجوهرة الكثيرة الثمن والدرهم الضائع والكنز المخفي في الحقل وشبكة صيد السمك (متى ١٣)، كما تحدث بأمثلة ليوضح مفهوم الملكوت كمَثل الزارع في الأرض الجيدة والشوك والصخر (متى ١٣)، ومَثل الرجل

المديون عشرة آلاف وزنة (متى ١٨)، ومَثل فعلة الكرم (متى ٢٠)، ومَثل العذارى والوزنات والدينونة (الجائع والعطشان والغريب...) (متى٢٥). يبقى ان أهم صورة للوحدة بين المؤمنين والرب يسوع في الملكوت، هي صورة مائدة الملكوت حيث «كثيرون سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابرهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات» (متى ٨:١١)، و«أنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتا، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي» (لو٢٢: ٢٩ و٣٠ تتلى هذه القراءة يوم الخميس العظيم).

في معرض وصفه لوضع البشر بعد القيامة في اليوم الأخير، يوضح يسوع انه في الملكوت السماوي في اليوم الأخير «لا يزوّجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء» (متى ٣٠:٢٢). ألم يقل يسوع لبيلاطس «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو ١٨: ٣٦)؟ قال هذا الكلام حين كان بيلاطس واليهود يعيّرونه كملك، وبهذا التواضع أظهر حقيقة ملكه الإلهي. سوف يأتي ملكوت الله، حيث يسوع يحكم، في اليوم الأخير، عندما يملأ الرب كل شيء فيكون «الكل وفي الكل» (كو ٣: ١١). لقد أعطى الرب يسوع كنيسته، التي تسمى بحسب التقليد الأرثوذكسي الملكوت على الأرض، أن تحيا منذ الآن خبرة الملكوت حيث هو الكل في الكل والحاكم والملك عبر الأسرار والصلوات. الكنيسة تعترف منذ الآن بالرب يسوع الملك الأوحد والرب الأوحد، وتمجده وتخدمه.

ملكوت الله إذاً هو حقيقة إلهية. إنه حقيقة حضور الله بين البشر بالمسيح في الروح القدس. «لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً بل هو برٌ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس. لأن من خدمَ المسيح في هذه فهو مرضيٌ عند الله ومزكى عند الناس» (رو ١٤: ١٧ و١٨).

ملكوت الله كحقيقة إلهية وروحية يُعطى لنا نحن البشر بالمسيح يسوع في الكنيسة. ونحن نحتفل بهذا الملكوت ونختبره ونتذوقه منذ الآن في الأسرار الإلهية والإيمان. وقد شهدت لهذا الملكوت الكتب المقدسة والمجامع والقوانين الكنسيَّة والقديسون. وسوف يصبح هذا الملكوت الحقيقة الكونيَّة لكل الخليقة في نهاية الأزمنة، عندما يأتي المسيح بمجد ليملأ كل الأشياء من نفسه بالروح القدس ويصير هو «الكل في الكل». الملكوت هو أن تكون مع يسوع، وهذا الملكوت ليس له انتهاء لأن يسوع انتصر مرة واحدة وإلى الأبد على الشرير، وكل من ارتضى أن يملأه يسوع يعيش منذ الآن وإلى ما لا نهاية في فرح وبرٍ وسلام، حيث لحن المعيّدين الذي لا ينقطع.

البشارة

تعيِّدُ الكنيسةُ المقدَّسةُ في الخامس والعشرين من آذار لتذكار بشارة سيدتنا والدةِ الإله، الدائمةِ البتوليةِ مريم. نعبّرُ عن فرحِنا بقدوم الخلاص، المسيَّا المنتظر، هاتفين: «اليومَ رأسُ خلاصِنا، وظهورُ السرِّ الذي منذ الدهور. لأنَّ ابنَ اللهِ يصيرُ ابنَ البتول، وجبرائيل بالنعمة يبشِّر. لذلكَ ونحنُ معه فلنهتفْ نحو والدةِ الإله: إفرحي أيتها الممتلئة نعمةً الربُّ معك».

للعذراءِ مريمَ مكانةٌ خاصةٌ في الكنيسةِ المقدّسة، تدعوها «والدةَ الإله» لأنها صورة عن الخليقةِ التي انتظرتِ الخلاصَ المتعلقَ بالخليقةِ كلها، وليس بشعبٍ دون آخر. فإن الخلاص، المسيح يسوع، لم يأتِ فقط للشعبِ العبري، بلْ عبر نسله لكل الشعوب. العبرانيون ليسوا شعباً موجوداً أصلاً، لأنَّ الله

الإنجيل

(لوقا ١: ٢٤-٣٨)

في ذلك الزمانِ حبلت أليصابات امرأةُ زخريا فاختبأتْ خمسةَ أشهرٍ قائلةً هكذا صنع بي الربُّ في الأيام التي نظر إليَّ فيها ليَصرفَ عني العارَ بين الناس* وفي الشهرِ السادس أُرسِلَ الملاكُ جبرائيلُ من قِبَل الله إلى مدينةٍ في الجليل اسمُها الناصرة، إلى عذراءَ مخطوبةٍ لرجلٍ اسمهُ يوسفُ مِن بيتِ داودَ واسم العذراءِ مريم* فلمَّا دخل إليها الملاك قال: «السلامُ عليكِ أيتها المُنعَمُ عليها، الربُّ معكِ مباركةٌ أنتِ في النساء»* فلمَّا رأتهُ اضطربتْ من كلامهِ وفكّرتْ ما عسى أن يكون هذا السلام* فقال لها الملاك:«لا تخافي يا مريمُ فإنَّكِ قد نلتِ نعمةً لدى الله، وها أنتِ تحبلينَ وتلدينَ ابنًا وتسمينَهُ يسوع* هذا سيكون عظيمًا وابنَ العلي يُدعى وسيُعطيه الربُّ الإله عرشَ داودَ أبيهِ ويملكُ على بيتِ يعقوبَ إلى الأبد، ولا يكونُ لملكهِ انقضاءٌ»* فقالت مريم للملاك: «كيف يكون هذا وأنا لا أعرفُ رجلاً»* فأجاب الملاك وقال لها: «إنَّ الروحَ القدسَ يحلُّ عليكِ وقوّةُ العلي تظلّلكِ ولذلك فالقدوسُ المولود منكِ يُدعى ابنَ الله* وها إنَّ أليصاباتَ نسيبتَكِ قد حبلت هي أيضًا بابنٍ في شيخوختها وهذا الشهر هو السادس لتلك المدعوّة

عاقرًا* لأنَّهُ ليس أمرٌ غيرَ ممكنٍ لدى الله»* فقالت مريمٍ «ها أنا أمةٌ للربّ* فليكن لي بحسب قولك». وانصرف الملاكُ من عندها.

تأمل

«ولما بلغ ملء الزمان» كما يقول الرسول الإلهي، أُرسِل الملاك جبرائيل من قِبَلِ الله إلى تلك التي كانت بالحقيقة ابنة لله وقال لها: «افرحي يا ممتلئة نعمة، الرب معك». كلام عجيب من الملاك موجَّه إلى تلك التي تسمو على الملاك قد جلب الفرح إلى الكون بأسره. بيد أنها «اضطربت لهذا الكلام» لكونها غير معتادة على الاختلاط بالرجال، ولأنها كانت عازمة بشدة على حفظ بكارتها. «وقالت في نفسها: ما معنى هذه التحيّة؟» فقال لها الملاك عندئذٍ: «لا تخافي يا مريم فقد نلت حظوة عند **الله**». نعم في الحقيقة، نالت حظوة من هي أهل للحظوة. نالت حظوة من عملت وحرثت حقل النعمة، وحصدت سنابل وافرة (الثمر). نالت حظوة من أنتجت بذار النعمة وحصدت من النِعمة الغلّة الوفيرة. نالت لجّة من النعمة، تلك التي حفظت سفينة البتوليتين سالمة، إذ كانت تسهر في الواقع على طهارة نفسها، لا أقلّ مما على طهارة جسدها، وقد حفظت بتوليتها الجسديّة نفسها.

وقال لها (الملاك): «ستلدين ابنًا تسمّينه اختارَ إنسانًا، هو إبراهيم. إختارَ اللهُ نسلاً عاقرًا لتكون الولادة نعمةً تحضّرُ بالنبوءات، مجيء المخلص. فقد قالَ اللهُ لإبراهيم: «ويتبارك في نسلِكَ جميعُ أُمَمِ الأرض» (تك ٢٢:١٨)، «ولا يقولُ وفي الأنسال كأنه عنْ كثيرين، بلْ كأنه عن واحدٍ، وفي نسلِكَ الذي هو المسيح» (غلا ٣:١٦). والعذراءُ مريمُ تبشَّر بالحَبَل في أحشائها البتوليةِ بالمولودِ الإلهي ليسَ من رجلٍ، إنما من الروح القدس. هذا دليلٌ آخر على شموليَّةِ الخلاص. ولكن ألم يكن ممكنًا أن يمنحنا اللهُ الخلاصَ دون أن يتجسَّد؟ من عَرَفَ عُمقَ محبَّةِ اللهِ وغِناها يُدركُ أنَّه، حتى لو لم يسقط الإنسانُ ويبتعد عن الله، لكان اللهُ أيضًا تجسَّدَ وأصبحَ إنسانًا، مُشتركًا في طبيعتنا البشريَّة، لنُشاركَهُ نحن بدورِنا بطبيعتهِ الإلهيَّة، لأننا ورثةٌ لملكوتِ السموات ولسنا عبيدًا. هكذا علّمنا آباؤنا القديسون الذينَ اختبروا محبَّةَ اللهِ بعُمقِها. وكما أصبحَ اللهُ كيانًا واحدًا والعذراءَ باتخاذهِ من أحشائها جسدًا بالروح القدس، هكذا مَنْ آمنَ باسمه يصبحُ وإيَّاهُ كيانًا واحدًا. وشرطُ الكينونةِ الواحدةِ الاتضاعُ وقبولُ مشيئةِ الله. هكذا تصرَّفتِ العذراءُ مريمُ إذ قالت للملاك: «هوذا أنا أمَةٌ للربِّ ليكن لي كقولِكَ» (لو ١:٣٨). وكما ظلَّل الروحُ القدسُ العذراءَ يومَ البشارة، هكذا ظلَّلنا يومَ معموديَّتنا، يومَ أخذنا، في سر الميرونِ المقدَّس، مواهبَ الروحِ القدس، فأصبحَ جسدُنا هيكلاً له (راجع ١كو ٦: ١٩-٢٠)، أصبحنا خاصَّتَهُ.

ولكن كيف يُحوى، غيرُ الموسوعِ في مكانٍ، في أحشاءٍ بتوليَّةٍ؟ أو حتى في الكيانِ البشريِ؟ عَمَلُ اللهِ في الإنسانِ يكمنُ بتحويل الطبيعةِ البشريَّةِ نحو اللامحدود. ألم يُخْلَقَ الإنسانُ منذ البدْءِ على صورةِ اللهِ ومثالِه؟ هذا يعني أنَّ للإنسانِ إمكانيةَ أن يسمُوَ بالنعمةِ من مجد إلى مجد، ليكون إلهًا بالنعمة. لهذا دعانا الربُّ يسوعُ لنكونَ كاملينَ وقدِّيسينَ كما أنَّ أبانا السماوي هو كاملٌ وقدوس (راجع متى ٥: ٤٨، و١بط ١: ١٦) أي أن نكون مُشابِهينَ له في مجدِه. حينئذٍ يتحوَّلُ الكيانُ البشريُّ عرشًا شيروبيميًّا لله. لهذا ندعو العذراءَ مريمَ «عرشًا شيروبيميًّا». هذا هو هدفُ خَلق الإنسان، وهذه هي محبَّةُ الله.

إلهُنا إلهٌ محبٌّ، هدفُهُ أن تسمُوَ البشريَّةُ جمعاءُ نحوَهُ. هذه هي إرادتُهُ، وهذا هو «السرُّ الذي منذُ الدهور». وجدَ اللهُ له إناءً مصطفى، ربيبةَ الهيكل التي ما سمعت سوى صوت نعمته فقالت له هاأنذا يا ربُّ. كما أجابَ قديمًا صموئيلُ النبيُّ اللهَ عندما دعاه للنبوءة (راجع ١ صم ٣: ١-١٠). وهكذا يجدرُ بنا نحنُ أيضًا أنْ نطيعَ الصوتَ الإلهي، لنكونَ أبناءَ العلي، فلا نزدري بالنِعَمِ المقدَّمةِ لنا، بل نُثْمِرُها لحياةٍ أبديَّةٍ. آمين.

القديس يوحنا السلمي

تُقيم الكنيسة المقدَّسة في الأحد الرابع من الصوم تذكار القديس يوحنا السينائي أو السلمي، نسبة إلى كتابه «السلم إلى الله».

عاش هذا القديس بين عامي ٥٢٥ و٦٠٠، قضى معظمها راهبًا ومتوحدًا. قصد دير سيناء وهو في السادسة عشرة من عمره، ولما بلغ العشرين اعتزل في البادية متوحدًا لمدة أربعين سنة قضاها في الجهاد والصلاة، مختبرًا فنون الحرب اللامنظورة مع الشرير وحلاوة التكلّم مع الله. وقد كان خلال هذه المدة يستقبل طالبي الإرشاد الروحي ويشفي أسقام بعضهم.

حسده البعض وأطلقوا حوله

الشائعات ونعتوه بالثرثار، فصمت مدة سنة كاملة، فعادوا إليه يتوسلونه أن يتكلّم لأجل خلاص النفوس. بعد ذلك انتُخب يوحنا رئيسا لدير سيناء. خلال رئاسته للدير كتب «السلم إلى الله» بناءً على طلب رئيس دير ريثو الذي رغب أن يكتب يوحنا «الألواح الروحية للناموس الجديد» لمنفعة الرهبان. قسّم الكتاب إلى ثلاثين مقالة حول الصلاة والصوم والطاعة والوداعة والكذب والضجر والصمت والزهد والأهواء. ومن يرتقي في هذه الفضائل الروحية يشبه من يصعد الدرج أو السلم إلى الله.

قبل رقاده استقال يوحنا من رئاسة الدير وعاد إلى وحدته، ثم رقد بسلام لينتقل إلى الأخدار السماوية.

من أقواله:

+ الصلاة في كنهها هي عشرة الإنسان مع الله والاتحاد به تعالى، أما في فعلها فهي دعم الكون ومصالحة الله، وأم الدموع وابنة لها أيضًا، وتكفير عن الخطايا، وجسر لاجتياز التجارب، وسور في وجه الأحزان، وقطع دابر القتالات، وشغل الملائكة، وقوت جميع العادمي الأجساد، والفرح المنتظر، وعمل غير محدود، وينبوع الصالحات، ومَعين المواهب، وتقدّم غير منظور، وغذاء النفس، واستنارة العقل، وفأس يقطع اليأس، وعلامة الرجاء، وتلاشي الغم، وثروة الرهبان، وكنز المتوحدين الصامتين، وتسكين لغيظنا، ومرآة لتقدمنا، وإظهار لقدرتنا، وإيضاح لحالنا، وإعلان المستقبل، وسمة المجد. الصلاة هي للمصلّي الحقيقي محكمة الرب ومنبره وحكمه قبل الحكم المنتظر.

+ عندما نتوجه للمثول لدى ملكنا وإلهنا ومخاطبته فلا نجعلن سعينا هذا بغير استعداد لئلا يبصرنا الملك من بعد غير لابسين الحلة اللائقة للوقوف أمامه، فيوعز إلى أعوانه وخدامه بنفينا بعيدًا عن وجهه مغلولين ويرد عرائضنا ممزقة أمام وجهنا.

+ لتكن حلة نفسك عند ذهابك للمثول أمام الرب منسوجة كلها بخيوط عدم الحقد الكامل وإلا فلا تستفيد من صلاتك شيئًا.

+ لتكن طلبتك بسيطة كل البساطة خالية من التكلف والتزويق لأن العشار والإبن الشاطر قد صالحا الله بكلمة واحدة.

+ لا يليق بنا أثناء الصلاة أن نعمل عملاً غير مهم، بل ولا عملاً مهمًا، لأن الملاك الذي ظهر لأنطونيوس الكبير قد رتب هذا جليًا.

+ ينبغي أن نُدرج في عريضة توسلاتنا شكرًا خالصًا قبل أي شيء آخر، ثم اعترافنا بهفواتنا وتندمًا حارًا عليها، وبعد ذلك نعرض سؤالنا لملك الكل. هذه هي طريقة الصلاة الفضلى على ما أوضحه ملاك الرب لأحد الإخوة.

+ لا تتأنق في ألفاظ صلاتك فإن لعثمة أطفال بسيطة خالية من التنميق كثيرًا ما استعطفت أباهم السماوي.

+ لا تعمد إلى الإكثار من الأقوال في الصلاة لئلا يشتت عقلك في البحث عن ألفاظ التضرع. فإن كلمة واحدة من العشار قد استرضت الله، وصرخة إيمان واحدة خلصت اللص. فالثرثرة في الصلاة كثيرًا ما تجنح العقل إلى التخيلات وتشتته بينما الكلام المقتضب يجمعه.

+ إذا أحسست بحلاوة أو تخشع في لفظ من ألفاظ صلاتك فاثبت فيه فإن ملاكنا الحارس يصلي معنا حينذاك.

يسوع – ويسوع يعني مخلّص –: فهو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم»، فماذا أجابت «كنزُ الحكمة الحقيقي» على هذه الكلمات؟ إنها لم تقتدِ بحواء أمها الأولى، بل بالحري قوّمت سلوك هذه الطائش، فتستّرت وراء حماية الطبيعة واتخذت هذا الحديث نوعًا ما بمثابة جواب على كلام الملاك: «كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً؟» ما تقوله مستحيل: كلامك يقلب نواميس الطبيعة التي ثبّتها خالقك.

لا أقتنع بأن أقوم بدور حواءَ ثانية، ولا بأن أخالف مشيئة الخالق. إذا كنت لا تتكلم ضد الله، اشرح لي كيفية الحبل لكيما يزول ارتباكي. فقال لها الملاك الحقّ عندئذ: «الروح القدس يحلّ عليك، وقدرة العلي تظلّلك، لذلك فالقدّوس الذي يولد منك يدعى ابن الله». السر الحاصل ليس خاضعًا لنواميس الطبيعة، لأن مكوّن الطبيعة وسيّدها يعدّل كما يشاء حدود الطبيعة. وهكذا، تجاه الإسم الإلهي المكتنف على الدوام بالحب والعزّة والذي سمعَتْه باحترام مقدّس، نطقت الممتلئة مخافة وفرحًا بعبارات الطاعة: «أنا خادمة الرب، فليكن لي كما تقول».

القديس
يوحنا الدمشقي